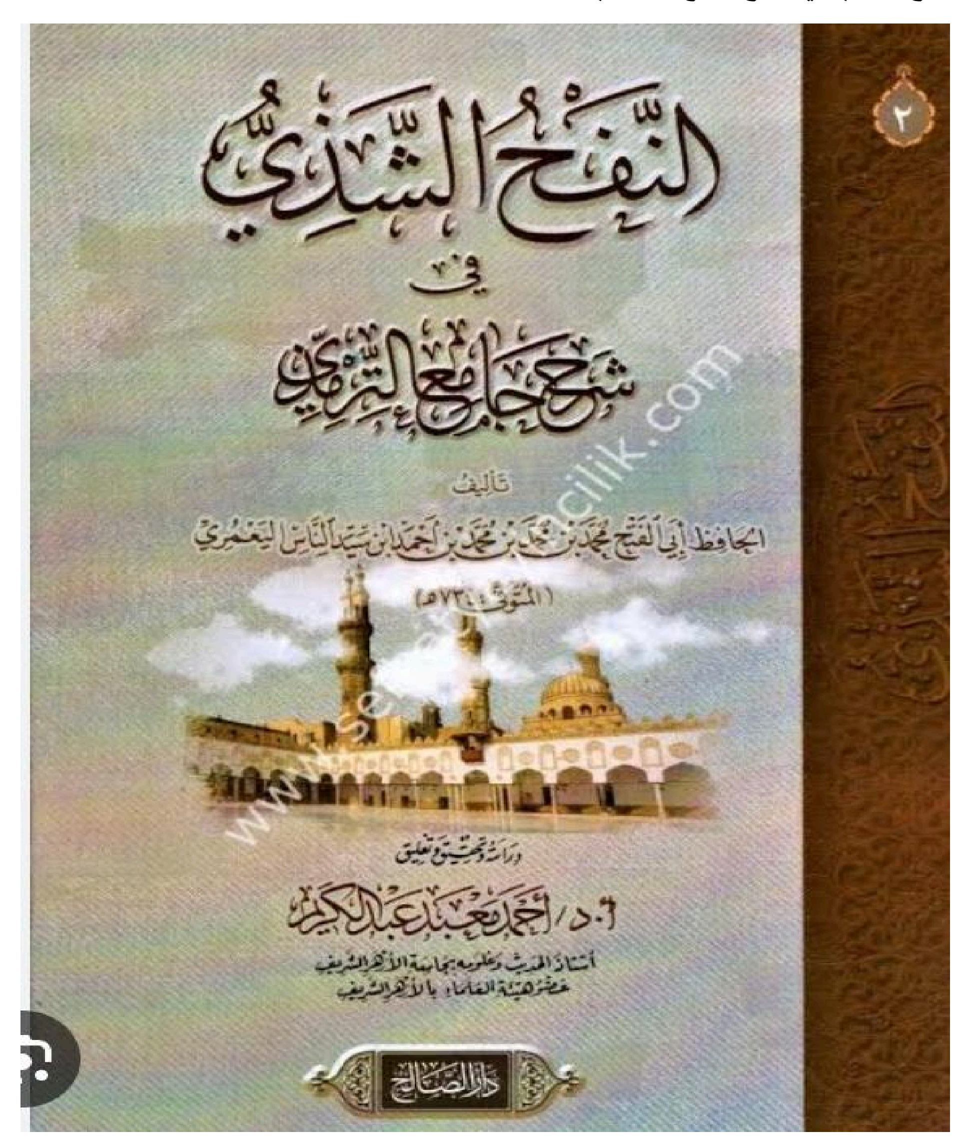
النفح الشذي في شرح جامع الترمذي



المؤلف

أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري (المتوفى: 734هـ)

<u>كشاف الكتاب</u>

المؤلف له آراء وإضافات من تلقائه، حيث يأتي باستنباطات من عنده، فهو مجدد في باب الشرح، وليس بنقال كما هي سمة كثير من الشراح، وهو إمام في الصناعة الحديثية، وتنقل أقواله كثيراً في كتب المصطلح، وشرحه شرح نفيس مملوء بالفوائد والشوارد من الأحكام الفقهية والصناعة الحديثية، أبان عن إمامة مؤلفه إلا أنه لم يُكمل، حيث وقف ابن سيد الناس في شرحه عند: باب ما جاء أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام.

ثم شرع الحافظ العراقي في إكماله على طريقة مؤلفه بل أوسع؛ لكنه كسابقه مات قبل إتمامه، فشرع ابنه الحافظ أبو زرعة في تكميله وكسابقيه لم يُكمله، ثم ذكر السخاوي في ترجمته لنفسه من الضوء اللامع أن من مؤلفاته تكملة شرح الترمذي للعراقي، وذكر أنه كتب منه أكثر من مجلدين في عدة أوراق من المتن، فأصل هذا الكتاب وتتماته سمتها الطول والاستقصاء والتتبع؛ لذا جاء كتاباً حافلاً عظيماً، وهو من أفضل شروح جامع الترمذي وأمتعها وأنفسها.

ويتلخص منهج ابن سيد الناس في شرحه بما يلي:

يذكر نص الترجمة ويشرحها، ويذكر المتن ويخرج الأحاديث ويستطرد في ذلك، ويبين درجة الأحاديث، ويدرس الأسانيد، ويبين معاني الألفاظ ويضبطها ويعربها إعراباً وافياً، ويبين الأحكام المستفادة من الحديث، وحكمة التشريع منها، ويبين ويستطرد في ذكر المباحث الأصولية المتعلقة بالحديث، ويأتي باستنباطات من عنده. ويمتاز هذا الشرح بتوسعه في الشرح عموماً. ومقدمة ابن سيد الناس فيها لفتات واختيارات اصطلاحية لا توجد عند غيره، نقل كثير منها إلى كتب المصطلح.

أما تكملة الحافظ العراقي فهي على نمطه إن لم تكن أجود، وأما تكملة الابن أبي زرعة والسخاوي فلم أطلع عليهما. والمقصود أن هذا الكتاب أبدع فيه ابن سيد الناس، وأيضاً لا يقل دونه إبداع الحافظ العراقي.

والكتاب - مع الأسف - على أهميته ونفاسته لم يطبع منه سوى مجلدين، والثالث منذ سنين تحت الطبع، فلا يدرى ما مصيره! والذي يعوق عن إتمام مثل هذه المشاريع طول النفس في التعاليق، فالذي طبع الكتاب وحققه وعلق عليه - في مجلدين فقط - الأستاذ البارع الشيخ أحمد معبد -حفظه الله -، وهو دكتور من خيار من عرفناهم، وله وقفات، ولمسات، وله تحقيقات لا توجد عند غيره، وهو من أهل هذا الشأن، وقد أطال النفس في تعاليقه على هذا الكتاب، واستطرد في التعليق على بعض المسائل الاصطلاحية وبعض الرواة، حتى إن بعض الرواة استغرقت تراجمهم عند الشيخ في التعليق سبعين صفحة، فمثل هذا العمل -والله أعلم- ما يتم على هذه الطريقة، ولا يمكن أن يتم، فلا إفراط ولا تفريط، فالأولى أن يُعتنى بكتب أهل العلم وتُخرج كما يريده مؤلفوها من الصحة والضبط والإتقان، ويعلق عليها بتعليقٍ خفيف في مواطن الحاجة، ويحال على ما يحتاج إليه من مواضع الكتب، نعم تعاليق الشيخ ما تقاس بتعاليق غيره ممن همه تسويد الورق وتكثير الصفحات، فالشيخ كلامه مفيد؛ لكنه يعوق عن إخراج الكتاب وإتمامه.

<u>**ومن ويكيبيديا**</u>

النفح الشذي في شرح جامع الترمذي: هو أحد أهم كتب الحديث التي كُتبت في شرح جامع الترمذي. ألفه محمد بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن سيد الناس. ويُذكر أن تلميذ ابن سيد الناس صلاح الدين الصفدي هو من أشار إلى ابن سيد الناس بهذا الاسم، فبعد أن كان يريد تسمية كتابه: «العرف الشذي في شرح الترمذي» اقترح عليه تلميذه بتسميته: «النفح الشذي في شرح جامع الترمذي» لتوافق كلمة «نفح» مع كلمة «شرح» في السجع.

إلا أنَّ ابن سيد الناس لم يتم كتابه، وقد قال في ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني عن الكمال الإدفوني: (إنَّ ابن سيد الناس شرع لشرح الترمذي، ولو اقتصر فيه على فن الحديث من الكلام على الأسانيد لكمل، لكنه قصد أن يتبع شيخه ابن دقيق العيد فوقف دون ما يريد). إلا أنَّ ذلك لم يكنْ معيباً فيه، فقد وصفه محمد الشوكاني بأنَّه ممتع في جميع ما تكلم عليه من فن الحديث وغيره. كما أن تلميذ ابن سيد الناس الصلاح الصفدي وصفه بأنه: (جمع فأوعى).

وقد شرع زين الدين العراقي بكتابة تكملة لهذا الشرع، إلا أنَّه لم يتح له إكمال التكملة إلى نهاية جامع الترمذي. وذكر ابن حجر في تكملة العراقي: (وبيض من تكملة شرح الترمذي كثيرًا، وكان قد أكمله في المسودة أو كاد، كتبت منه عنه قدر مجلد، وقرأت أكثره عليه

اسم المؤلف

هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس.

يقال له الربعي (نسبةً إلى ربيعة بن نزار) ويقال له اليعمري (نسبة إلى أصله يعمر، وهو بطن من كنانة).

ويقال له الأندلسي، لأن أصله من الأندلس، ويقال له الإشبيلي، لأنه من إشبيلية في الأندلس، ويقال له المصري وكذلك القاهري، لأن أسرته انتقلت إلى القاهرة من الأندلس.

ويُلقب بفتح الدين.

ويُكنى بأبي الفتح. وكذلك بـ ابن سيد الناس. لكن الأخيرة تُنسب أيضًا لغيره من عائلته.

مكانة الكتاب وأهميته

يعد هذا الكتاب أولَ شرحٍ وافٍ لسنن الترمذي.

قام قبل ابن سيد الناس الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى سنة 516 هـ) ببدأ شرح لجامع الترمذي. لكنَّ ذلك الشرح غير معروفٍ، كما قال السيوطي: إنَّه لا يعلم أحدًا شرح جامع الترمذي كاملًا إلا القاضي أبي بكر بن العربي، وهو كان بعد البغوي. وكان اسم كتاب ابن العربي «عارضة الأحوذي». وقال زين الدين العراقي بعدم كفاية شرح ابن العربي. وقال فيه العراقي: (وليس المنهوم بتلك العارضة يغتذي).

وبعد شرح ابن سيد الناس تتابعت الشروحات لسنن الترمذي. منها:

- شرح جامع الترمذي لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد.
- العرف الشذي على جامع الترمذي لسراج الدين عمر بن رسلان بن نصير، المعروف بالبلقيني.
- شرح الترمذي لابن حجر العسقلاني، وقد نوه إليه في كتابه فتح الباري.
- قوت المغتذي، لجلال الدين السيوطي.
- شرح أبي الطيب السندي.
- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، لأبي العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعروف بـ المباركفوري.

- إتحاف طالب الأحوذي بشرح جامع الترمذي للشيخ محمد علي آدم الإثيوبي، لكن اخترمته المنية قبل أن يكمل هذا الشرح، انتهى فيه إلى (أَبْوَاب الْحُدُودِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والمطبوع منه 18 مجلد، والمتوفر حاليا من الكتاب المصور هو 6 مجلدات فقط.

من بعد ابن سيد الناس استفاد كثيرًا مما خطه في شرحهم لسنن الترمذي.

منهج ابن سيد الناس في شرح الترمذي

1- بدأ فيه بأهمية السنة في الدين الإسلامي، ثم انتقل إلى سبب تأليفه هذا الشرح، ألا وهو حفظ العلوم التي لديه (مما اقتبسه من علماء، أو مما خطر له فيه) المتعلقة بهذا الشرح، لأن الكتابة هي قيد العلم.

2- ثم كتب بعد ذلك مقدمتان لكتابه:

- الأولى: التعريف بالإمام الترمذي، اسمه ونسبه وطلبه للحديث وما إلى ذلك، وبرجال إسناد المؤلف.

- الثانية: التعريف بجامع الترمذي. ببيانة الاهتمام في تأليفه وإقرار الشيوخ للترمذي عليه.

ثم عرف الحديث الحسن والغريب، والمراد عند الترمذي بهما واستفاض في هذا.

3- ثم قام ابن سيد الناس بشرح أبواب جامع الترمذي، فشرح كتاب الطهارة ثم كتاب الصلاة الذ لم يكمله. وكان شرحه كالتالي:

- ذكر نص الباب كما هي في جامع الترمذي.
- ثم يضع عنوانًا لشرح الباب، فيضع العنوان التالي أحيانًا (الكلام عليه)، كما في باب النهي عن استقبال القبلة بغائط أو بول. وأحيانًا يعنونه بـ (الكلام عليه من وجوه) كما في باب ما يقول عند افتتاح الصلاة. وفي بعض الأحيان لا يضع عنوانًا لشرحه. والمقصد من قوله: (الكلام عليه من وجوه)، فعند التفصيل يضع عناوين فرعية، مثل «من حيث الإسناد» ويتحدث بعده عن الإسناد في هذا الباب. ثم ينتقل لوجهٍ آخر، كالمفردات والغريب وما إلى ذلك.
- ثم يقوم بتخريج الأحاديث: ولها ثلاثة أحوال في شرحه، وهي:

- تخريج الأحاديث التي قال فيه الترمذي: وفي الباب عن فلانٍ وفلانٍ: ومن الأمثلة على ذلك قول الترمذي (وفي الباب عن أبي قتادة وعن عائشة وعمار) ثم ذكر الترمذي رواية أبي قتادة، فقام ابن سيد الناس بتخريج حديث عائشة.

- بيان من أخرج الحديث غير الترمذي، بغض النظر إن كان أخرجه بنفس طريق الترمذي أو بطريقٍ آخر. ومن ذلك حديث مغفرة الذنوب بالوضوء، بعنوان بعدها (الكلام عليه) وذكر أنَّ الحديث أخرجه مسلم، وأتى بسنده فيه.

- تخريج أحاديث كان يرى ابن سيد الناس أنها ذات علاقة بالباب الذي يشرحه، وكان الترمذي لم يخرجها فيه. فيكتب (وفي الباب مما لم يذكره..). في بعض الأحيان يأتي بالحديث بلفظه، وفي أحيان أخرى يكتفي بتوجيه القارئ لمصدر الحديث.

- بيان درجة الحديث: وذلك بأن يقول صراحةً بأن الحديث صحيح أو ضعيف، أو يتحدث عن الراوي هل هو ثقةً أم لا، أو عن السند هل متصل أم منقطع أو غير ذلك.
- دراسة الأسانيد.
- شرح الألفاظ، وإعرابها وضبطها.
- إدراج بعض الأحكام المستفادة من الحديث، والحكمة المرافقة لتشريع هذه الأحكام.
- ذكر المباحث في أصول الفقه وأصول الدين المتعلقة بالحديث المذكور.
- كان ابن سيد الناس يضيف ما يراه مناسبًا من علمه في شرحه، فلا يكتفي بالنقل من مصادره المتعددة: ومن ذلك أنه ذكر أربعة أقوال في تعليل العلماء من قبله للاستغفار بعد الخلاء، ثم أضاف من عنده تعليلًا خامسًا.

<u>مميزات النفح الشذي</u>

ذكر الدكتور أحمد معيد عبد الكريم ميزات النفح الشذي عن باقي شروحات الترمذي بعد دراسته، فرتبها كالتالي:

1- الاستفاضة في الشرح أكثر مما فعل ابن العربي.

2- الاهتمام بتخريج الأحاديث وتوضيح درجاتها. بغض النظر إن كانت مما نقله من الترمذي، أو مما أدرجه.

3- حفظه لآراء المؤلف، وإضافاته العلمية.

<u>مآخذ على كتاب النفح الشذي</u>

جمع الدكتور أحمد عبد الكريم انتقادات العلماء على النفح الشذي فيما يلي:

1- في أحيان نادرة يشير ابن سيد الناس إلى شيء دون أن يعزوه إلى مصدر. وقد صرح في بداية كتابه أنه يفعل ذلك لنسيان مصدره.

2- لا يوجد عنوان عام لبعض الأبواب، ولا عناوين تفصيلية لبعض الأبواب التي لها عنوان عام، وذلك بخلاف الأبواب الأخيرة التي وضع لها عناوين عامة وتفصيلية.

3- تخريجه لبعض الأحاديث في بعض الأبواب ليست ذات علاقة بالباب نفسه.

4- تخريج ابن سيد الناس لحديث من مصدر، مع وجود الحديث في مصدرٍ آخر أوثق وأشهر. ومن الأمثلة على ذلك تخريجه لحديث عمرو بن أبي عمرو العجلاني في النهي عن استقبال القبلتين عند قضاء الحاجة إلى كتاب الكامل لابن عدي، بينما نجد هذا الحديث في مسند أحمد.

5- التوسع والاستطراد في تراجم بعض الرواة بما لا حاجة إليه في الكتاب.

6- ذكره المتكرر أنَّ الترمذي لم يسبقه أحد إلى مراده بالحديث الحسن، وهذا خالفه فيه عددٌ من علماء مصطلح الحديث.

ترجمة المؤلف من ويكيبيديا

محمد بن محمد بن محمد اليعمري، فتح الدين أبو الفتح الإشبيلي، المعروف بابن سيد الناس (671 هـ، القاهرة - 11 شعبان 734 هـ، القاهرة)، محدث، حافظ، مؤرخ وفقيه أندلسي الأصل.

مولده

ارتحلت أسرته من الأندلس قبل مولده، واتخذت من القاهرة محل إقامة لها، وبها كان مولده سنة (671 هـ)، وذلك في العقد الأخير من حكم السلطان الظاهر بيبرس (658 - 676 هـ)، وعاصر دولة المماليك في عصرها الأول.

نشأته

نشأ في أسرة اشتهرت بالعلم والثقافة، فكان والده على جانب كبير من العلم الشرعي والأدبي، وولي مشيخة الكاملية بعد ابن دقيق العيد، كما كان جده يلقب بخطيب تونس وعالم المغرب ، اعتنى به والده منذ صغره، فحرص على تأديبه وتنشئته نشأة دينية، وتولى بنفسه تعليمه كثيراً من المعارف والعلوم وعلى رأسها علم الحديث، فكان شيخه في هذا الباب، وعنه روى كثيراً من الكتب بأسانيدها، وكان يحضره إلى كبار علماء عصره فيجيزونه ، وفي ذلك يقول عن نفسه: «ومولدي في رابع عشر ذي القعدة سنة إحدى وسبعين وست مئة بالقاهرة، وفي هذه السنة أجاز لي الشيخ المُسند نجيب الدين أبو الفرج عبد اللطيف بن عبد المنعم الحرّاني، وكان أبي رحمه الله يخبرني أنه كَناني، وأجلسني في حجره، وكان يسأله عني بعد ذلك، وأجاز لي بعده جماعة، ثم في سنة خمس وسبعين حضرت مجلس سماع الحديث عند جماعة من الأعيان، منهم الحبر الإمام شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي ابن أخي الحافظ عبد الغني المقدسي، وأثبت اسمي في الطباق حاضراً في الرابعة».

رِحْلاته وأبرز مشايخه وتلاميذه

كانت لابن سيد الناس رحلات عديدة في طلب العلم والسعي إليه، حاله حال من سبقه من علماء المسلمين، فكانت له رحلة إلى بلاد الشام والحجاز والإسكندرية، التقى خلالها بأبرز علمائها، وأشارت المصادر إلى أنه أخذ العلم عما يقارب الألف من العلماء قراءة وسماع وإجازة ، حتى أهلته ليكون واحداً من أبرز علماء عصره، وكان في مقدمتهم الإمام قطب الدين القسطلاني، وعن ذلك يقول: «ثم في سنة خمس وثمانين كتبت الحديث عن شيخنا الإمام قطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن القسطلاني رحمه الله بخطي، وقرأت عليه بلفظي، وعلى الشيوخ من أصحاب المسند أبي حفص بن طبرزد والعلامة أبي

اليُمن الكندي والقاضي أبي القاسم الحرستاني والصوفي أبي عبد الله بن البنّا وأبي الحسن بن البنا، وغيرهم بمصر والإسكندرية والشام والحجاز وغير ذلك، وأجاز لي جماعة من الرواة بالحجاز والعراق والشام وإفريقية والأندلس وغيرهم يطول ذكرهم»، ومن أبرز مشايخه أيضاً الذين ارتحل إليهم وكان لهم عظيم الأثر في حياته وتكوين شخصيته العلمية والأدبية أستاذه الفقيه ابن دقيق العيد وقد كان يحبه ويؤثره ويصغي إلى كلامه ويثني عليه، ومن مشايخه أيضاً الإمام البدر ابن جماعة، والقاضي شمس الدين ابن العماد، وابن المجاور، وابن عساكر، أما تلاميذه فكان من أشهرهم الحافظ الذهبي الذي قال عنه: «سمعت بقراءته وجالسته مرات وحفظت عنه وأجاز لي مما قرأت بخطه».، ومن أشهرهم كذلك الصفدي.

مؤلفاته

ترك الحافظ ابن سيد الناس للأمة مصنفات عديدة منها ما هو مطبوع متداول في عصرنا هذا، ومنها مالا يزال مخطوطاً في المتاحف والمكتبات الخاصة، ومنها ما فقد وأشارت إليها كتابات المؤرخين، وهي:

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير.
- نور العيون في تلخيص سيرة الأمين المأمون، وهو مختصر لكتاب عيون الأثر. صدر بتحقيق سليمان الحرش.
- المقامات العلية في كرامات الصحابة الجلية.
- النفح الشذي في شرح جامع الترمذي.
- منح المدح.
- بشرى اللبيب بذكرى الحبيب.
- تحصيل الإصابة في تفضيل الصحابة.
- العباب في الفروع.

وفاته

أجمعت المصادر على أن الحافظ ابن سيد الناس قد توفي فجأة في الحادي عشر من شهر شعبان سنة (734 هـ)، وذكر في ذلك «أنه دخل عليه واحد من الإخوان يوم السبت حادي عشر شعبان فقام لدخوله ثم سقط من قامته فلقف ثلاث لقفات، ومات من ساعته».، وقال عنه معاصره الأدفوي مبيناً فضله ومكانته: «ولم يخلف بعده في القاهرة ومصر من يقوم بفنونه مقامه، ولا من يبلغ في ذلك مرامه، أعقبه الله السلامة في دار الإقامة».

ثناء العلماء عليه

بلغ الحافظ ابن سيد الناس مكانة رفيعة لدى معاصريه وأقرانه من العلماء، وبالغ تلاميذه وأقرانه في الثناء عليه والإشادة بفضله وعلمه، فهذا تلميذه الإمام الذهبي يثني عليه فيقول: "كان صدوقاً في الحديث حجة فيما ينقله، له بصر نافذ بالفن، وخبرة بالرجال وطبقاتهم، ومعرفة بالاختلاف"، وقال عنه تلميذه الآخر صلاح الدين الصفدي: "كان حافظاً بارعاً، أديباً متفنناً، بليغاً ناظماً ناثراً، كاتباً مترسلاً، خطه أبهج من حدائق الأزهار"، وحدث عنه معاصره الإسنوي فقال: "حافظ الديار المصرية، شيخ البلاغة والبراعة، صاحب النظم الرائق والنثر الفائق " ، وقال عنه الحافظ ابن حجر: "قل أن ترى العيون

مثله في فهمه وعلمه وسيلان ذهنه وسعة معارفه وحسن خطه وكثرة أصوله"، وحدث عنه ابن الوردي في تاريخه فقال: "الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس كان أحد الأذكياء الحفاظ له النظم والنثر والبلاغة والتصانيف المتقنة"، وقال عنه ابن كثير: "اشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه في علوم شتى من الحديث والفقه والنحو وعلوم السير والتاريخ وغير ذلك، وقد جمع سيرة حسنة في مجلدين، وقد حرر وحبر وأفاد، ولم يسلم عن بعض الانتقاد، وله الشعر والنثر الفائق، وحسن التصنيف والترصيف والتعبير وجودة البديهة وحسن الطوية والعقيدة السلفية والاقتداء بالأحاديث النبوية، وتذكر عنه شؤون أخر، الله يتولاه فيها.

ولم يكن بمصر في مجموعه مثله في حفظ الأسانيد والمتون والعلل والفقه والملح والأشعار والحكايات«، وقال البرزالي:» كان أحد الأعيان معرفة وإتقاناً وحفظاً للحديث وتفهماً في علله وأسانيده عالماً بصحيحه وسقيمه مستحضراً للسيرة، له حظ من العربية، حسن التصنيف، صحيح العقيدة، سريع القراءة، جميل الهيئة، كثير التواضع، طيب المجالسة، خفيف الروح، ظريفاً كيساً، له الشعر الرائق والنثر الفائق، وكان محباً لطلبة الحديث ولم يخلف في مجموعه مثله. وقال عنه القطب: إمام محدث حافظ أديب شاعر بارع جمع وألف وخرج وأتقن وصارت له يد طولى في الحديث والأدب مع الإتقان ثبت فيما ينقل ويضبط من أحسن الناس محاضرة.

شيء من مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمَّد وآله وصحبه وسلّم.

حمدًا لله تعالى على ما علّم، وشكره على ما هدى إليه من سبيل الرشد وألهم، وأعَان عليه من حَمَلَ سنّةَ نبيّه محمَّد ﷺ، التي هي عن هداه تبسم، وعن مشداه تنسم. والصلاه والسلام على نبيّه محمَّد، الداعي بعزمه الأقوى إلى صراطه الأقوم، على بصيرة تجلو ما ادْلهمّ، وتوضِّح ما أُبهم، وآله وصحبه الذين استضاؤوا من سناه بأنور معلم، واستماحوا ما أضفى عليهم ثوب الثواب العلم، والرضى عن تابعيهم بإحسان على المنهج المبهج، والمسلك الأسلم. ومَنْ خَلَفهم من سلفِ العلماء الذين تُعزى إليهم معرفةُ السننِ وتُسلَّم.

فأولى ما صُرِفَتْ العنايةُ إليه ووجب الاعتماد عليه: ما وقَف الحائر به حسيرًا؛ ليرتد إليه طَرْف بصيرته بصيرًا، فَيَثْني من أَغصانه عنان عطفه، ويجني من أفنانه ثمار قَطْفِهِ -بعد كتاب اللهِ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- مِن رياض السنن النبوية التي أبدعت الحكمة الإلهية في إنشائها أَحسن الإبداع، وأودعت الأسرار النبوية في خزائنها ما شاءت من الإيداع، ذخائر تستخرجها العقول من مكامنها، وتستنبطُها العلومُ مِن معادنِها، وتغوص في طِلابِها لُجَّة عبابها؛ فتبوء من دَرِّ سحابها بِدرِّ سِخابِها متحلية بحمله، متخليّة لصونه إلّا عن أهله، وطالما جاب أربابُها القفار في اقتفاء الآثار، واقتناء سُنة النبي المختار، فتؤم فريقها لتلمّ تفريقها، وتسَهِّل على المسالك طريقها، وتُبَيِّن مَهْجورَها من مسلوكِها، وتُعيِّن مقبولَ السنن -لمن رامها- مِن متروكِها، وما حمله العدلُ مما نقله الجريح؛ ليميز السليم الصحيح من السقيم.

وأين الجامح على عنانه ممن هو بذات الطلح مليح، حماية لحمى المصطفى، ودراية ترفع ذلك الشقاء عمَّنْ هو على شفا، وعناية يلمح آمالهم نجح سعايتها، ويُوضح أنهم أوتوا السنن فرعوها حقّ رعايتها.

وإذا كانت هذه الطريقة المُثلى للشريعة الفُضلى، فأولى ما ثَنى طالبها إليه عنانه، وأفنى في تطلبه زمانه، ما جمع له مِن فنونها، وشرفه بغني أسانيدها ومتونها، ونزه طرفه في أساليبها، وصرفه بين صحيحها وحسنها وغريبها، وعرفه مردودها من مقبولها، ومقطوعها من موصولها وأهدى إليه إرسال مرسلها، أو علة معلولها، وأبدى لديه ما تضمنته السنن من نسخ وإحكام، ومعان أحكام، إلى غير ذلك مما يأتي الإشارة إليه، والتنبيه بحسب الإمكان عليه.

ولمّا كان كتاب «الجامع» للإمام أبي عيسى الترمذي الحافظ □، ورضي عنه- هو الذي أبدع جامعه وما أبعد، والذي حظي بتعداد هذه العلوم، فكان بها من غيره أَقعد؛ فذلل جوامحها، وسهَّل طوامحها، وأرسل لواقحها، وأسال بأعناق المطِيِّ أباطحها، واستلان صعبها، وأبان لمن ظنّ بُعْدَها قُرْبَها؛ كان حقًّا على طالب هذا الشأن أنْ يلحظ من حقوقه واجبها، ويحفظه حفظ الأكف رواجبها، فاتفق من مُدةٍ أنَّه قُرِئ رواية فلم يخلُ مجلس الرواية والسماع من فائدة تُستفاد، ونكتة ربما تُستجاد، مما نقلتُه مِن كتابٍ أعزوه إليه، أو سمعته مِن عالم أرويه عنه، مما حضرني ذكْرُ قائله، أو غاب عني -لبعد العهد به- اسم ناقله، أو مما جاء به الذهن الركود، وجادت به القريحة وقل أنْ تجود، أو مما أنتجته المذاكرة واستحضرته المحاضرة، فكنت أرى مِن ذلك تقييد ما أَسْتحسِنُه، ولست أضمن أنْ يَمُرّ بي داء وَرِم يمر بي فأستسمنه، ثم عنّ لي أنْ أضمّ لتلك الفوائد ما يضارعها، ليشفع ماضيها مضارعها ويجمعها تعليق من طلبها به ألفاها، ومن نَشَدَها وَجَدَ عنده مُغَيّاها.

فكثيرًا ما تمر الفائدة بمن يسمعها أو يطلبها فينأى عنها مغزاها، ومن قَيد العلم بالكتاب أمِنَ مِن هذا اللّبس والارتياب.